جبل أو ريشة

نوره مشرف الشمري

" أن تترامى بك ظروف الحياة المؤلمة ولا تجد من

يعينك عليها ثم تقرر بعدها أن لا تلقي اللوم على

أحد وتتحمل مسؤولية نفسك "

"يحزنني أنني عندما خرجت إلى هذه الدنيا أن والداي لم يفرحا بقدومي"

عهد

فرصة رائعة تنتهزها عهد في كل مرة تقام داخل قريتها النائية دورات تدريبية مجانية لتطوير الذات، وذلك انها لا تملك من المال ما يكفي لتدفعه لحضور لكل المدربين الذين قلما تسعفهم أوقاتهم للسفر لهذه القرية ونادراً ما تكون الدورات بلا مقابل .

في كل مرة تحضر فيها تستمع لما يقال بانصات وتشعر بالحماس يجري في عروقها وتعزم على أن تتغير وتخطط وتكتب لكن مفعول تلك الكلمات لا يستمر أكثر من أسبوع "وأسبوع كثير" .

لكن حدث شيء مختلف هذه المرة وغريب هي لم تنجذب لدورة اليوم على الرغم أن الملقي هو أكثر الأشخاص قدرةً على اقناعها مسبقاً وأكثر الأشخاص قدرةً على تحريك مشاعرها نحو الأفضل بسبب قوله : المسؤولية جبل ثقيل على اعتاق كل واحد منّا يجب علينا حملها وتحملها ، هذا الكلمة لم تكن مجرد كلمة قيلت ويستحسن تقبلها وإن لم تعجبك فلا غضاضة في تمريرها، كلمة اشعلت تفكيرها وشغلته حتى نهاية الدورة .

عادت عهد إلى المنزل وأصوات الضوضاء داخله يكاد يسمعها لعلوها الصم البكم وأخرجت تنهيدة طويلة فحواها: اعانني الله بقدر صبري عليكم ،ثم ملمت نفسها من جديد عندما احست أن ثمة ضيوف داخل غرفة الجلوس وأخرجت المرآة من حقيبتها للتأكد أن كل شيء على ما يرام ثم دخلت وألقت التحية وإذ بشقيقاتها الأربعة مجتمعات هن وأولادهن وبناتهن ،وكالعادة احست أنهم عالم غير عالمها ففضلت الذهاب لغرفتها لكن أمها اجبرتها على الجلوس

وأخذت تردد لها نفس الكلام الذي تقوله في كل مرة تقبل عهد من دورة :ماذا استفدنا من تعلمك ؟ ومتى تنتهين من الذهاب لتلك الدروس ؟.. الخ ،عهد بلا ردة فعل جلست على الأريكة القريبة من الباب وفكرها لا تزال تدور فيه تلك العبارة ولم تفارقه للحظة واحدة وفي صمت تام وتجاهل من جميع للحديث معها ،بدأت تنظر إلى أخواتها المتشابهات في الشكل المختلفات في طريقة الحياة ..

أحداهن تشكو من فقر زوجها وقد ارتدت أرخص الثياب ، والأخرى تلك الصالحة التي لم يفارقها ذكر الله وخاتم التسبيح لا يكاد يفارق أناملها فهي متزوجة من امام مسجد الحي ، وأما الكبرى فهي الغنية المترفة التي لا تكاد تكون هناك دولة معروفة يقبل عليها السياح إلا وقد زارتها ،ترتدي أغلى الثياب وتتعطر بأجود أنواع العطور فزوجها من أكبر تجار المدينة ، وأما أصغر المتزوجات عندما تراها " أنت " تشعر أن هموم الدنيا كلها قد اجتمعت عليها لما لا وهي قد ارتبطت برجل قليل الاهتمام ، صعب الطباع ،متقلب المزاج لم تعرف معه معنى السعادة ولم تذقها فهي دائماً في حالة هم وقلق وابسط الأمور تكاد تنفجر منها غيظاً وتكاد تفقدها وعيها .

لم تخرج عهد من دوامة هذا التفكير والتحليل إلا على كرة من ابن أختها ارتطمت برأسها و كادت لولا رحمة الله أن تقسمه لنصفين اشتطات غضبًا وخرجت هائمة على وجهها وقالت : لا أدري أهو مجلس أو ملعب أطفال !؟

اغلقت الباب ووضعت عباءتها على السرير ثم استلقت عليه ، نهضت فجأة وبدأت تنظر على نفسها في المرآة وكأنها لأول مرة ترى تلك الفتاة قالت : أنا لا أعرفك ...ثم عادت واستقلت .

بعد فترة متأخرة من الليل وقد انفض البيت من الضيوف خرجت من غرفتها نحو غرفة والديها تقدم رجلاً و تأخر الأخرى ففي عقلها سؤال لا يحتمل التأخير وإن كانت تعلم أنها ستكون مصدر ازعاج لهم ، طرقت الباب وفتحت لها أمها تغير وجه الأم خوفاً على ابنتها مالذي دعاها أن تأتي في هذا الوقت المتأخر من الليل بادرتها بالسؤال : أنتي بخير!؟

قالت : نعم يا أمي ولكني اردتك بأمر ضروري

قالت الأم : وما هو ؟

قالت عهد : لدي سؤال

قالت الأم : سؤال !

قالت عهد : أمي هل قمتي بتربية بناتك بنفس الطريقة ؟

قالت الأم في ذهول : نعم وماذا بعد ؟

قالت عهد : إذاً لماذا هن مختلفات بعد الزواج بهذا القدر ؟

نظرت الأم في عيني ابنتها المليئة بالتساؤلات ثم قالت : نعم ربيتهن .. ولكني اشك في تربيتي لك!

وأغلقت الباب بكل ما أوتيت من قوة ،

عادت عهد إلى غرفتها ثم توجهت مباشرة إلى المرآة..

قالت وهي تحدث نفسها:هل علي أن انتظر أن تكوني زوجة حتى أعرف من تكوني ؟ .. أنا لن أرضى بهذا الوضع وعهداً على نفسي من هذه اللحظة سيكون الأمر مختلفاً،

و قبل أن تخلد إلى النوم أخذت تقلب صفحات الدفتر الذي حوى كل أسرارها وكل اهتماماتها وكل شكواها قد خُطّت فيه وعلى الرغم من أهميته هي لا تحاول إخفاؤه عن أحد ولا تحرص على أن تضعه في مكان آمن بعيد عن أعين أسرتها ، ليس لأنها لا تخشى من أن يقرأه أحد فهو يحتوي أشياء خاصة جداً ، بل لأنها تعلم أن لا أحد سيهتم بفتحه ولا أحد سيهتم لما تكتب فكل اهتماماتها بالنسبة لأسرتها مجرد عبث وتضييع للوقت ، فوقعت عينها على أحد خواطرها التي كتبتها منذ فترة طويلة وهي : ((ثمة حزن استوطن قلبي وهد ما تبقى من أجزاء كياني ثمة كسر عجزت الأيام والسنين أن تجبره في مكان ما لا أدري أي جزء من داخلي هو .. بل هو داخلي بأسره)) ، قاست تلك الأيام الماضية البعيدة بحالها الآن ثم قالت : يالليهول هي نفس المشاعر ونفس الاحتياجات الآن ، ما أقسى نفسي على نفسي لم أعمل شيئاً لأجلها ثم

كتبت : لأني احتاج للتغير أكثر من كل مرة ، لأني محتاجة لأشياء كثيرة جداً مادية ومعنوية، ولا أجد من يلبي ما أريد ، ولأني اشعر باهمال كل من حولي لي ،ولأنني استحق حياة أفضل ، أنا لن أمد يدي لأحد بعد اليوم ولن أحزن لمشاعر الآخرين السلبية تجاهي سأستغني عن كل البشر ولا اتوجه إلا إلى رب البشر ..

ثم اغمضت عينيها وراحت في سبات عميق وكانت الليلة الوحيدة التي لم تبكي فيها قبل أن تنام .

و في فجر هادئ وعلى أصوات الآذان التي تعالت تدعوا لاستيقاظ الروح قبل استيقاظ الجسد نهضت من فراشها وليس بين عينيها إلى هدف واحد، صلت بخشوع وحضور قلب لم يسبق له مثيل مستحضرة آية الله الكريمة التي يقول فيها ((وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)) ، فتحت هاتفها ثم وجدت به رقماً غريباً قد كتب لها رسالة غريبة :

أنا اهتم لأمرك كثيراً وأنا أكثر الناس ايماناً بك حدثيني عندما تحتاجين ،

أرسلت له عهد باستغراب وصدمة: ومن أنت/ي !؟

« عليها : إنسان يثق فيك وقرر أن يقف بجانبك ويكون سنداً لك ،

ولأنها في فترة في اشد الحاجة فيها لمن يقف معها قالت في نفسها: إنسان يهمه أمري هذا ليس بالشيء السيئ فأرسلت له : حسناً.

ثم بدأت بفتح كل المواقع التي تختص بنشر الوظائف الشاغرة في قريتها لقناعتها أن الأعمال الكبيرة تبدأ بالأصغر منها وكانت بكامل استعدادها أن تبذل وتتعب لأجل أن تصل لما تريد أن تكونه ، فوجدت العمل المناسب وخرجت مسرعة إلى أمها لتخبرها بذلك

فردت الأم : يالك من صاحبة أوهام

قالت عهد بنبرة قد اشتعلت همة وحماسة : أعمال أعمال يا أمي وليست أوهام

و لأن عهد تعيش في بيئة ترى أن المرأة عنصر أقل في المجتمع لم يكن لرأي أمها تأثيراً كبيراً في الأمر فذهبت إلى والدها شديد الشخصية منغلق الفكر ،جل جهده واهتمامه لأولاده الذكور فهم سنده وعصبته وركنه الشديد الذي يأوي إليه في مدلهمات الأمور " كما يقول دائماً " دخلت عليه في مجلسه خائفة مترددة بل مرعوبة لا تدري إلى ماذا سيؤول الأمر وهي لم تعتاد أن تناقشه في أمر

قالت : أبي تأذن لي أن أحدثك في أمر مهم

قال من دون أن ينظر إليها : اسْمَحْ

قالت : أريد أن أعمل

قال : وما المانع في هذا هل طلبتي من أمك أن تطبخي ولم توافق ؟ أو تغسلين ملابس أخوتك ولم توافق ايضاً ؟ كم هي أم سيئة !

عندما قال هذا ازداد الأمر رهبة في نفسها لكنها تشجعت

وقالت : لا يا أبي لا أقصد هذا ولكني وجد عمل في محل نساء ثم شددت بقولها " ليس لديه زبائن إلا النساء "

نظر إليها نظرة قد ملئت غضباً وقال : وماذا تحتاجين ولم تجديه

قالت: أنتم لم تقصروا أعرف ذلك ولكنكم تعطوني ما تظنون أنه أساسي وتمنعوني مما أراه أنا أساسي ..

وقبل أن تنهي حديثها انتهرها بقوله : أغربي عن وجهي انسيتي أنك بنت ؟ لو كنت أعلم أن ما تقرئينه والسخفاء الذين تحضرين هذيانهم سيوصلونك إلى هذا الحال لمنعتك عنهم من البداية

ذهبت عهد بعد أن يئست منه وبدأت تشكو لصاحب الحساب الغريب وقد تبدد الأمل منها فطمئنها الآخر بكلمات قوية قائلاً : أن تنازلتي عن حقك في تحقيق أحلامك فأنتي ستضربين نساء العالم أجمع

قالت عهد : وكيف ذلك ؟ وما شأني بهن !؟

قالت: لقد تنازلت الكثير من بنات حواء عن حقوقهن واحدة تلو الأخرى حتى وصل الأمر إليك وقرارك حتماً سيغير

قالت : وكيف لي اقناع أبي هل تحثيني على عصيان أوامره والخروج عن طاعته

قال : لا ليس الأمر كما فهمتي والدك يحبك كثيراً حتى لو لم يبين ذلك لأنه نشأ على أن يكتم حبه ويظهر شدته استغلي هذه النقطة وحاولي شرح الأمر له أن عملك لا يخدش الحياء وفي مكان آمن وأنك تحاولين زيادة دخل الأسرة ومساعدتهم بدل الجلوس في المنزل بلا فائدة ،

عاد الأمل الذي تبدد من قلب عهد ورجعت تحاول مرة أخرى قالت لوالدها كل الكلام التي نصحها ذلك الشخص ولكن دون جدوى بل هذه المرة كاد أن يصل إلى الضرب وأخذ يسب ويشتم ويتهمها أنها بلا دين وبلا حياء ، خرجت من عنده مطأطئة الرأس مكسورة الجناح

وعندما وصلت إلى الباب تراجعت خطوة للخلف ثم نظرت في عيني أبيها وقد أغرقت الدموع عينيها وقالت بصوت هادئ رقيق : أريد حرية الإسلام حرية الإسلام يا أبي ..

كان الأب واقفاً غاضباً فأطفأت هذه العبارة ناره وغيرت قراره وأجلسته في مكانه ثم قال : ما كان يمنعني من الموافقة هو خوفي عليك ولكني الآن ... صمت ثم أكمل : إذا كان العمل مناسب لك فلا مانع عندي بشرط ألا نسمع ما يسيء لنا بين الناس وإن حصل وسمعنا لن يكون الأمر سهلاً عليك ،

قبلت يده وشكرته في فرحة ودهشة و أسرت تبشر صاحب الحساب لأنها تعلم أنه لن يفرح أحد لها كفرحه فهو يحدثها بطريقة تشعرها أنه قد تخلى عن كل اهتماماته لأجلها ولإسعادها بدأت تحبه وتثق فيه أكثر من أي أحد وبدأت تكافئه على أي تطور في حياتها يكون هو سببه .

كانت موافقة أبيها انتصارا لها وبداية في تحقيق أحلامها استغلت تلك الفرصة التي قُدمت لها وبدأت بالعمل والتخطيط وما هي إلا سنوات قليلة حتى تركت وظيفتها و بدأت تجارتها الخاصة التي طالما تاقت نفسها إليها و بارك الله لها فيها ، وتقصير أهلها معها سابقاً لم يمنعها من إكرامهم لأن من يتحمل مسؤولية نفسه سيكون قادراً على تحمل مسؤولياته تجاه غيره .

عهد تلك الفتاة الطموحة لا زالت تلقي النظر إلى كتاباتها السابقة وتتأمل كيف تغيرت من حال إلى حال بفضل الله ثم بفضل صاحب الحساب المجهول الذي منحها الحب والاهتمام والثقة وكانت هي الأخرى تربة خصبة لزرع كل بذرة خير فيها ثم كتبت في آخر صفحات الكتاب الذي قد ملأ قصص الماضي المؤلمة وخواطره المحزنة من بدايته إلى الصفحة ما قبل الأخيرة :

لا يهمني إن كنت دائما الخيار الأخير في قائمة من حولي

لم اعد أهتم كم أعطيهم وكم يأخذوا مني

لم أعد اهتم لاهتمامي الزائد بهم في مقابلة إهمالهم المتكرر لي

لا تؤلمني طعناتهم ولا تجرحني كلماتهم

أنا أتجاهلهم

أنا لا أعتمد عليهم في منحي الثقة بنفسي

أنا لا أحمل عليهم شيئاً في قلبي

أنا اغفر لهم

ليس لأجلهم ولكني أملك حلماً يشغلني عن سلبيتهم

املك حلم لا يفهمونه ولا يستطيعونه

حلم لم أطرق به أبوابهم ولم أمد به يدي إلى أموالهم

ولم يعد يخطر لي وأنا أسعى إليه أني احتاجهم ،

ثم أحرقت جميع الأوراق إلا هذه الصفحة ،أرادت أن ترسل تلك الكلمات الجميلة المعبرة لذلك الشخص ثم توقفت وضحكت ثم أفرطت بالضحك وقالت :لقد صدقت نفسي كثيراً

ثم أرسلت لصاحب الحساب الغريب : شكراً يا نفسي لأنك تقبلتيني بكل عيوبي وأخطائي أنا أحبك ....

يا لصدمة !! لقد كانت عهد طوال هذه المدة ترسل لنفسها من حساب آخر وتشجعها وتحفزها بعد أن شح الجميع في منحها ما تحتاجه وما تريده وبعد ما فقدت الكثير .

وقبل أن تنتهي رحلتنا مع عهد ....

هل تذكرون ذلك الرجل المدرب التي سمعت منه عبارة (المسؤولية جبل ثقيل على اعناق كل واحد منّا يجب علينا حملها وتحملها) لقد التقت به مرة أخرى بعد فترة طويلة وفي آخر حواره طلبت منه أن يسمح لها بمشاركة بسيطة ولم يمانع

ذكرته بما قال سابقاً ثم قالت :لقد أخطأت وكان عليك أن تكون مسئولاً عما تقول المسؤولية ليست جبل ثقيل كما أخبرتنا سابقاً هي حمل أن تعلمنا تأديته بالطريقة الصحيحة كان على أعناقنا أخف من ريشة .